أصـــل عربـــي
لحكاية إسبانية مشهورة

Origen Arabe de un
Famoso Cuento Espaanol
Al-Andalus
Vol : XXIV 1956

أصل عربي لحكاية إسبانية مشهورة

إحدى الحكايات الذائعة الصيت في الأدب الإسباني ما يتضمنه الفصل العاشر من كتاب «القونت لوقانور» الذي صنفه دون خوان مانويل ، ويحكي فيه ما حدث لرجل لا يجد ما يتبلغ به – بسبب مسغبته – سوى حبات من الترمس . صادفت هاته الحكاية إقبالا منذ اللحظة التي ضمنها كاتب اسباني آخر هو دون بدرو كالديرون دي لاباركا في المشهد العاشر من الفصل الأول في مسرحيته «الحياة حلم» وهي رواية ذائعة جدا إلى حد أن قليلا من الإسبان المتوسطي الثقافة لا يحفظونها عن ظهر قلب .

لدينا إذن روايتان للحكاية ذاتها ؛ أولاهما ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وثانيتهما تعود إلى القرن السابع عشر ، في مختصرات تاريخ الأدب الإسباني ، وفي الأبحاث التي تدور حول كالديرون ، وفي الطبعات المتعددة لمسرحية «الحياة حلم» حين يتناولون المشهد العاشر المشهور «يحكي أن أحد العلماء ذات يوم ..» والموضوع على لسان «روساوْرا» تعودوا أن يشيروا بطبيعة الحال إلى أن الرواية تعزى إلى الفصل العاشر الذي أومأنا إليه آنفا ، والذي يلقن فيه «باترونيو» القونت لوقانور درسا غير قابل للمحاجّة فيما يبدو ، وفي الوقت نفسه بحثوا عن مصدر محتمل لهذه الحكاية المقتضبة معرّجين على الأدب الكلاسيكي ، والأدب الوسيط لكن دون جدوى . هاته الصفحات تبرهن ، وأعتقد أن ذلك بطريقة بينة – على أن الحكاية ذات أصل أندلسي عربي تئول إلى القرن العاشر .

الفصل العاشر من كتاب القونت لوقانور :

في هذا المثل علينا أن نحدد – في المحل الأول – العنصرين الجوهريين في الحكاية ذاتها .

أ – الفحوى : رجل كان في القديم واسع الثراء ، برّح به الفقر إلى حد أنه لا يجد ما يطعم حاشا صفحة من الترمس Al Tramuces ، يتذكر في عوزه هذا ثرواته البائدة ، فيجهش بالدمع ، يجد سلواه فحسب حين يرى رجلا آخر كان أيضًا واسع الغنى يلتقط قشر الترمس الذي يطرحه فيلتهمه .

ب – المغزى : ليس من اللازم أن نعرض المغزى الذي تتضمنه الحكاية ، فقد كفانا هذه المئونة دون خوان مانويل نفسه كما هي عادته في بقية أمثاله أن يختمها ببيت من الشعر (ترجمناه من بحر الكامل الأحذ المضمر) :

لا تقنطنْ أبدا من الفقر فهناك أسوأ منك في العسر

ذلك المغزى لا يبدو بصورة جلية في شعر كالديرون ، الفحوى فيهما واحدة أساسا ، بيد أن ثمة بعض نقاط من الخلاف سنحللها فيما بعد .

حكاية دون خوان مانويل والنقد .

توجد مصادر هذا المضمون موجزة لدى «شوقان» ، وموسعة إلى حد ما في الحواشي التي صنعها «كنوست» في طبعته لكتاب القونت لوقانور .

المصدر الذي أراد أن يراه أشد قدما مثل عند «تاليس دي ميليتو» مختصر من تأليف «ديوخينس لايرثيو» : «يُسأل تاليس كيف تكون الرزايا أخف وطأة على أحدهم ؟ فيقول إذا رأى شانئيه أشد رزءًا» لقد دار بخلده مثل آخر من الوصايا الكنائسية : لا تنظر إلى من هو أغنى منك ؛ لئلا تحسده ، بل انظر إلى من هو أفقر

منك ، واشكر الله على ذلك ، وبحثوا كذلك في أمثال العصر الوسيط بعضها لكتاب مشهورين مثل القديس توماس الأكويني .

كذلك التمسوا مصدرا شرقيا لدى الشاعر الفارسي السعدي : حكاية الدرويش DERVICHE المترب الذي لا يستطيع شراء حذاء فيسعد بقسمته حين يرى في أحد مساجد الكوفة فقيرا هِمًّا مبتور القدمين .

كما هو بيّن فإن الأساس الوحيد لعلاقة هاتيك المصادر المحتملة بالمضمون الذي عند دون خوان مانويل هو الذي يصلح قاعدة عامة لها كلها : البائس الذي يتسلى حين يصادف من هو أشد منه بؤسا . ومن الممكن كذلك أن يكون المغزى في القونت لوقانور أكثر مماثلة بالمصادر التي التمسوها لو أن المؤلف عمم المسألة متخذا منها قاعدة أشيع بدلا من انحصاره في نطاق الحكاية .

ليس ثمة – في كل حال – حجة تتفق مع الفصل العاشر في كتاب دون خوان مانويل إلا أن تكون بطريقة شديدة الإغماض ، ليس ثمة إلا المغزى بيد أنه لا يتضمن – بصفة دقيقة – فكرة أصيلة : إنه أمر شائع ، قديم قدم الزمن ، ومسألة لا تفتقر إلى مصادر . إذن لا شيء يأذن لنا بالظن أن ثمة علاقة قائمة بين أيّ من الأمثال التي أدلى بها وبين حكايتنا بل إنه لا عُلْقة بين بعضها والبعض الآخر ، كلها تولدت – مستقلة – بصفتها من ثمرات التجارب ، يبدو لي أن القضية من الجلاء لدرجة اعتقادي أنه من غير الحتم الإلحاح عليها ، إلا أنني أستغرب أنهم لم يعثروا على نظائر أخرى في الكتب الشرقية القديمة بما فيها التوراة .

مصدر دون خوان مانويل :

بينما كنت أقرأ لأغراض أخرى كتاب المغرب لابن سعيد ، دهشت لوقوعي على شيء هو بلا ريب أصل ذلك المحتوى الذي عند القونت لوقانور . هو ترجمة

عبد الرحمن القنازعي مدرجة في إحدى مصنفات ابن بشكوال المفقودة ، وأخذها ابن سعيد في كتابه المشهور ، غير أنه قبل دراسة هذا النص نقدم المترجم له ، وهو شخصية باهتة أمام أنظارنا ، إلا أننا نصادف ترجمته مقرَّظا في تراجم أندلسيين كثيرين ، وكذلك في مصنفات المشارقة .

اسمه كاملا عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي القرطبي ذكره المقري عرضا أثناء ترجمته لتلميذه أبي الوليد الكلاعي ، نعرف أن ابن بشكوال ترجم له في إحدى مصنفاته التي ضاعت اليوم ، والتي حفظها لنا ابن سعيد في جزء منها ، خصص له ابن بشكوال في «الصلة» مقالا مطولا ، هو أكثر ما لدينا إطنابا عن عبد الرحمن هذا ، يكنيه بأبي المطرف ، وتثبت هذه الكنية أيضًا في خبر شديد الوجازة يذكره عنه الضبي ، كذلك يظهر في جذوة المقتبس للحميدي ، وفي شذرات الذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ، وفي كتاب الديباج المذهب لابن فرحون الذي استخدم مصدرا آخر ليس بين أيدينا اليوم .

ربما ولد عبد الرحمن هذا في قرطبة ، حيث كانت تعيش أسرته . يحدد أحد مترجميه تاريخ مولده في سنة 341 هـ / 952 – 953 م درس في قرطبة على مشاهير الشيوخ – كما فصل ابن بشكوال في صلته بدقة – العلوم الأولى : الحديث والقرآن ، ورحل إلى المشرق سنة 367 هـ / 978 – 979 هـ ، فسمع بالقيروان على أبي بكر هبة الله بن محمد بن أبي عقبة التميمي المدونة ، وأجاز عنه وأجاز له ، ومنها رحل إلى مكة للحج ، واستقر مرة أخرى عند عودته بالقيروان فسمع على أبي محمد بن أبي زيد جملة من تواليفه ، وأجاز له سائرها ، وأجاز له أبو بكر الأبهري ولم يلقه . ويتابع صاحب الصلة قائلًا : وقدم قرطبة سنة 371هـ / 981 – 982 م بعلم كثير ، وأقبل على الزهد والانقباض وإقراء القرآن وتعليمه ، ونشر العلم وثبته ، وكان عالمًا عاملًا، وفقيها حافظًا متيقظا دينا ، ورعا فاضلًا ، متعاونا متقشفا متقللا من الدنيا

راضيا منها باليسير ، قليل ذات اليد ، يواسي على ذلك من انتابه من أهل الحاجة ، دءوبًا على العلم كثير الصلاة والصوم ، متهجدًا بالقرآن عالمًا بتفسيره وأحكامه وحلاله وحرامه ، بصيرًا بالحديث حافظًا للرأي ، عارفًا بعقد الشروط وعللها ، وله فيها كتاب مختصر حسن ، وجمع أيضًا في تفسير الموطأ كتابًا حسنًا مفيدًا ضمنه ما نقله يحيى بن يحيى في موطأه ، ويحيى بن بكير أيضًا في موطأه ، واختصر تفسير ابن سلام في القرآن ، وكان له بصر بالإعراب واللغة والآداب ، وكان حسن الأخلاق جميل اللقاء مقبلًا على ما يعنيه ويقربه من خالقه تعالى .

ويستمر ابن بشكوال مفصلًا الحديث بخبر مأخوذ عن الحسن بن محمد يستشف منه تواضع فقيهنا ، يقول :

ولما ولى علي بن حمود الخلافة بقرطبة أشار عليه قاضيه أبو المطرف بن بشر بتقديم القنازعي إلى الشورى ، وقدر أنه لا يجرؤ على رد ابن حمود لهيبته حرصًا منه على نفع المسلمين به ، فعمل ابن حمود برأيه وأنفذ إليه بذلك كتابا من عنده صرف به رسوله على عقبه وانتهره ، ولم يفكر في ابن حمود وسطوته ، وقال له : غر السلطان أعزه الله مني وأعطى العشوة من عملي ، أنا إلى وقتي هذا ما أقوم بمعرفة ما يجب عليّ فضلًا عن أن استفتى في غيري ، وأنشد متمثلًا :

وإن بقومٍ سوّدوك لفاقة إلى سيد لو يظفرون بسيد

فأعرض عنه ابن حمود وأوجب عذره .

نزاهة فقيهنا هذا تبدو مؤكدة في خبر رواه أبو عبد الله محمد بن عتاب وهو مروي أيضًا في الصلة ، وأخذه عنه صاحب المغرب .

لكن من الممكن أن نفكر في أن قسوة هذا الأمير ظلت تتحين الفرص لكي يدفع الفقيه الثمن غاليًا لقاء عدم طاعته ، يجعلني أتيقن من هذا جملة ملغزة عند ابن

فرحون ، وهو قد استخدم مصدرًا آخر ، كما قلت آنفا ، ليس موجودًا بين أيدينا اليوم . وفي الأيام التي أظهره فيها البربر بقرطبة مر القنازعي بمحنة همزت حميته وثلمت روحه فسببت له وهمًا ظل يساوره باستمرار ، وإن كان لم يضره .

وعلى كل حال ، فإن صاحبنا قد لقي ربه سنة ثلاث عشرة وأربعمئة ، أي بعد أن اغتيل عليّ بن حمود بأربعة أعوام .

كتب صاحبنا تواليف كثيرة لم يبق منها سوى أسمائها وموضوعاتها ذكرها بعض مترجميه . كان متكلمًا على الموطأ ، مجودًا للقرآن ، مختصرًا لتفسير ابن سلام ، ووثائق ابن الهندي ، وتصنيفًا آخر بعنوان الشروط على مذهب مالك بن أنس .

يتفق كل مترجميه عند الحديث عنه على علمه وشدة ورعه وزهده ، وكان صوام النهار قوام الليل (وهي جملة مطروقة عند الحديث عن الصوفية) راضيًا بالقليل من الحلال . تقول الصلة إنه توفى ليلة الخميس في رجب لاثنتي عشرة ليلة بقيت منه سنة ثلاث عشرة وأربعمئة (17 من أكتوبر سنة 1022) ودفن عشية يوم الخميس بمقبرة ابن عباس على قرب من يحيى بن يحيى .

رواية القنازعي :

الآن وقد تعرفنا على هذه الشخصية ، فلندعه هو يقص علينا هذا المشهد من حياته هو ، والذي هو الوقت ذاته الأصل اليقيني للفصل العاشر من كتاب دون خوان مانويل ، فأنسخ نص ابن بشكوال الذي حفظه لنا ابن سعيد : قال القنازعي : كنت بمصر وشهدت العيد مع الناس ، فانصرفوا إلى ما أعدوه ، وانصرفت إلى النيل ، وليس معي ما أفطر عليه إلا شيء من بقية ترمس بقى عندي في خرقة ، فنزلت على الشط ، وجعلت آكله ، وأرمي بقشره إلى مكان منخفض تحتي ، وأقول في نفسي : ترى إن كان اليوم في مصر في هذا العيد أسوأ حالا مني؟ فلم يكن إلا ما

رفعت رأسي ، وأبصرت أمامي ، فإذا برجل يلقط قشر الترمس الذي أطرحه ويأكله ، فعلمت أنه تنبيه من الله عز وجل ، وشكرته .

لقد وضعت خطا تحت الكلمات الرئيسية في النص العربي ، وضعت نظيره في ترجمتي إياه إلى الإسبانية .

لا أعتقد أن ثمة أدنى تردد في اعتبار هذا النص الذي هو من قبيل الترجمة الذاتية أصلا مباشرا تماما للمضمون الذي نصادفه لدى كاتبيْن مشهورين في الأدب الإسباني ، لكن كيف وصل إلى دون خوان مانويل؟

معلوم تماما أن في أمثال القونت لوقانور طائفة ذات أصل عربي ، وذات صلة أيضًا بتاريخ اسبانيا الإسلامية ، ثلاثة أمثال منها تحتوي كذلك على جمل عربية ، الأمر الذي يخول لنا الظن بأن دون خوان مانويل حين سمعها تحكي من أحد المسلمين اهتم بتقييد هاتيك الجمل إذ نطقها ذاك بالعربية أو طلب منه صاحبنا ترجمتها – ترجمة ما يعنيه أن يقيده في تأليفه بوصفه ذخيرة أسلوبية – أو إذا كان ذلك المسلم يتحدث الرومانثية وهو أمر مرجوع ، لكن الأمر الذي يعنينا هو شيء مختلف تماما كما نرى فيما يلي .

رواية دون خوان مانويل :

هل بلغت مصنفات ابن بشكوال (المتوفى سنة ١١٨٢) أو أي مصنف من مصنفات التراجم الأخرى التي من الجائز أن تضم هذه الحكاية انتشارا كافيا لكي تبلغ أسماع دون خوان مانويل؟ لا أظن وإن لم تكن ثمة شواهد مناقضة – أن دون خوان مانويل كان يعرف العربية الفصحى إلى حد يمكنه من قراءة هذه الحكاية مباشرة . هل ترجمها أحد المترجمين إذن؟

الرواية – بما لها من صبغة تهذيبية – من الممكن أن تكون قد أخذت دون إسناد إلى أحد ، وأولجها بعضهم في مصنفات رقائق المواعظ ، أو ببساطة في تواليف تزجية

الفراغ التي تكثر في الأدب العربي ، ومن الجائز أن مسلما يعرف اللغتين ترجمها لدون خوان مانويل ، أو من الممكن أنها ترجمت إلى اللاتينية أو الرومانثية وضمها أحد الكتب التي عرفها هو ولم تصل إلى أيدينا ، أو ربما قد سمعها في صورتها الشعبية – لكنها دائما قريبة جدا من صورتها الأصلية – من فم شاعر مسلم جوال ، لكن لنعرف الآن كيف استخدمها دون خوان مانويل ، لنبدأ بتذكر المثل العاشر لديه :

«قال باترونيو للسيد القونت لوقانور : لكي تتأسوا حين يصيبكم مثل هذا ، من المناسب أن تقفوا على ما حدث لرجلين كانا سابغي الثراء .»

رجاه القونت أن يقص عليه ما حدث .

استهل باترونيو حديثه قائلا : سيدي القونت ، أحد هذين الرجلين برحت به الفاقة إلى حد أنه لم يبق له شيء يتبلغ به ، بذل أقصى جهده ليجد شيئا فلم يجد إلا صفحة في ترمس ALTRAMUCES ، وحين تذكر ثراءه السابغ ، مفكرا في الجوع الذي يقاسيه الآن ، ولا يصادف إلا حبات الترمس الشديدة المرارة ، ذات المذاق الرديء ، أجهش بالدمع ، وإن كان لم يدع التهام الترمس للجوع الذي يعضه ، ويلقي بالقشر وراءه ، وفيما هو في لجة هذه الكآبة ، وفي هذا التفكير أحس أن شخصا خلفه، فأدار برأسه فإذا برجل يأكل قشر الترمس الذي يطرحه على الأرض، هذا الرجل كما قلت لكم كان في السابق واسع الثراء أيضًا .

وحين رأى صاحب الترمس سأل آكل القشر لماذا يأكله ؟ فأجابه : إني وإن كنت أغنى منك ، فإني انحدرت الآن إلى درك من العسر ، وشدة السغب إلى درجة أنني سعدت سعادة بالغة حين عثرت على القشر الذي طرحته ، عندما سمع صاحب الترمس هذا تعزى ، إذ رأى من هو أشد منه خصاصة ، ورأى أن وشائجه بالفقر أقل ، بهذا التعزي جاهد لينسلخ من فقره ، وظفر بعون الله وعاد مرة أخرى إلى سالف غناه .

إذن يا سيدي القونت لوقانور عليكم أن تعلموا أنه لا أحد في الدنيا يملك كل شيء كما قدر الله ، لكن الله يدلكم على نعمه في كل شيء ، فتحظون بما تريدون ، فإن شحت الدراهم أو ألمت بكم ضائقة فلا تأسوا على ما فاتكم ، بل اعلموا يقينا أن آخرين أغنى منكم ، وفي حالة يسر عظيم قد ألم بهم ما ألم بكم ، ويثلج صدورهم أن لو استطاعوا أن يمنحوا ذويهم ، وإن كان أضأل مما تمنحونه لذويكم .

فسر القونت كثيرا بما قصه عليه باترونيو ، وتعزى وجاهد ، فانسلح مما هو فيه – بعون الله– من العوز الذي طاف به وإذْ رأى دون خوان هذه الحكاية حسنة ضمها إلى كتابه وختمها بهذا البيت من الشعر :

لا تقنطنْ أبدا من الفقر فهناك أسوأ منك في العسر

منذ البداية يختفي في الرواية كل ما هو شخصي ، اسم البطل ، والوسط الجغرافي، والبيئة الإسلامية ، فتتحول بذلك إلى إحدى القصص التي في الذرع أن تحدث لأيّ كان ، وفي أية حقبة ، وفي أي بلد ، وتحرز الرواية بعدا عالميا لأنها لا تحتوي على عناصر من الممكن أن تكون غريبة على القارئ .

نستغنى عن الإطار الذي وضع القصة فيه دون خوان مانويل ؛ لأنه هو نفسه الموضوع في باقي الأمثال : يطلب القونت لوقانور النصيحة من باترونيو المؤدب ، الصالح ، الحكيم الذي يصوغه له في قالب مثَل يوجزه في النهاية في بيتي شعر .

التباين الأول الذي نلاحظه بالنسبة للبطل لدى باترونيو أنه كان في السالف واسع الثراء ، ثم بدَّد ثروته ، لم يكن من اللازم هاته الزيادة ، لكنها تصلح لتمنح الحكاية بعدا مأساويا عميقا حين تقدم لنا رجلا ليس لديه الآن ما يطعمه سوى حبات ترمس ، يستخدم دون خوان مانويل هذا التناقض بين حالة الثراء الفاحش ، وحالة الفقر المدقع ، ويبدو هذا التباين كذلك في صورة أخرى في الحكاية العربية .

كل من عاش في بلد إسلامي يعرفون جيدا أنه في شهر رمضان ، وفي كل الأعياد كل الناس لديهم دائما أطعمة فاخرة حتى الفقراء البؤساء وإن لم يكن لديهم ما يطعمون في مناسبات أخرى ، فمشهد المسلمين ساعة الإفطار وهم آيبون إلى دورهم حيث تنتظرهم موائد لذيذة هو الذي يعرضه القنازعي – النازح عن دياره – في مقدمة حكايته .

يجد البعض إذن نفسه في الحالة ذاتها ماديا ومعنويا ، ليس لديه ما يهدئ به كلب الجوع حاشا حبات ترمس ، يحملها الفقيه Alfaqui في خرقة ، ويحملها الغني (الفقير الآن) في صفحة ، وقد تمسك دون خوان مانويل بفقرة الترمس التي وردت في الأصل .

ينصرف الفقيه في أسى إلى شط النيل نائيا عن كل بهجة ، وكل مظاهر الفرحة ليأكل الشيء الوحيد الذي بقى عنده ، ويقول في نفسه ترى إن كان اليوم في مصر في هذا العيد أسوأ حالا مني . أما الآخر فتذكر زمنا كان فيه غنيا ، فيجهش بالبكاء لكن دون أن يخطر بباله أن يقارن حالته بحالة غيره .

وكلاهما بينما كانا يأكلان يطرحان قشر الترمس ، أحدهما في مكان منخفض تحته، وثانيهما يرميه خلفه ، ثم يصل رجل أشد منهما تعاسة فيلتقط القشر ويأكله . وتنتهي الحكاية بأن يكتفي الفقيه بهذا المشهد البسيط ليتعظ ، وليحمد الله على حظه.

وفي القونت لوقانور كان البطل الجديد كذلك فقيرا ذا ثراء قد أدبر ، وقد قدّمه لنا باترونيو في مستهل مثَله ، ولم يكن من الحتم أن يكون كذلك ، إذ كان غنيا أكثر من صاحبه الأول ، يحتوي المشهد على درس كافٍ دون حاجة إلى إضافة عناصر أخرى . بيد أن دون خوان مانويل أراغ إثارة الشجن إلى أقصى حد ، واخترع أيضًا في نفسه حوارا بين كلا الرجلين ، يقص الثاني على الأول أنه كان أغنى منه ، وبذلك وحده يتعزى الأول .

يستمر باترونيو في إسداء النصائح إلى القونت ، ليريه عبر كلمات عذبة أن ثمة رجالا كانوا أكثر منه غنى ، وهم الآن أسوأ منه حالا ، وقد نقول إنه كان في ذرع باترونيو أن يرمي بعظته مرامي أكثر بعدا ، لكنه كان ملتزما منذ البداية أن يحدد نفسه فيحل ما اقترحه عليه القونت لوقانور .

الحكاية لدى كالديرون :

دون شواهد بين أيدينا من الطبعي أن النقد قد اعتبر حتى الآن المثل العاشر في القونت لوقانور هو المصدر الذي اقتبس منه كالديرون المشهد العاشر الذي أوجزت فيه القصة إيجازا شديدا :

«يحكـــــون أن عالمـــــا
كـــــان فقـــــيرا بائـــــسا
يلتقـــط العشـــب ويـأكـــله

قال لنفسه : ترى من الذي يكون أسوأ مني حالا؟

حـــــين أدار رأســـــه
ألفـــى إجابـــة الـــسؤال
ثمـــــة عـــــالم فقـــــير
يلتقط العشب الذي يطرحه

والآن لو قارنّا أبيات كالديرون بالفقرة الذاتية لدى القنازعي لطفر أمام أعيننا أن الأبيات تشابه كثيرا النص العربي أكثر من تشابهها لمثل دون خوان مانويل . نلاحظ أولا أن البطل ليس الغني الذي افتقر عند دون خوان مانويل ، بل إنه عالم مثلما هو القنازعي . لنقل بصفة عابرة إن حالة هذا العالم الذي «يحكون عنه» والذي لا يجد ما يقيم أوده حاشا عشب الحقول - إلى هذا الأمد في المبالغة – هو شيء يحسب في إبداع كالديرون ، لقد اختفت حبات ترمس القنازعي – والتي كررها

دون خوان مانويل – وهي كلمة طويلة جدا ALTRAMUCES لولوجها بسهولة في هذا الضرب ذي الثمانية المقاطع في الشعر ، وليست على وجه الدقة كلمة شاعرية، بهذا التحوير أفلح الشاعر كذلك في تكثيف الجو الدرامي للقصة ، ونلاحظ ثانيا أن تأملات المكروب – رغم أنها غير موجودة في القونت لوقانور – فإنها لدى كالديرون – لم توجد فحسب بل إنها واضحة في أسلوب مباشر ، وفي جملة يبدو أنها منحولة من النص العربي :

(وأقول في نفسي) ترى إن كان أسوأ حالا مني؟

Habrá otro (entre si de cia)
Más Pobre y triste que yo?

شيء آخر ، وإن كان غير ذي أهمية كبرى – حدث في الأبيات الآتية : الخط القصصي لدى كالديرون يناصي خط القنازعي ، وينأي عن خط دون خوان مانويل الذي اخترع حوارا ، «ونهاية سعيدة» ، ومغزى ، وتعرى من ذلك كله أبيات كالديرون ، وسوف يسخر مني القاريء من شدة إلحاحي في التحليل الذي في ذرعه أن يصنعه هو .

في إيجاز .. فإن صياغة حكاية كالديرون ، أو بمعنى أدق حكاية الشخصية الواقعية التي ماتت في بدايات القرن الحادي عشر – في كل الأضواء الحقيقية إن لم نتجاوز الحد في عدم الثقة – أقرب إلى الرواية الذاتية العربية منها إلى رواية دون خوان مانويل .

هل في ذرعنا أن نظل نقول حتى الآن – رغم معرفة الحكاية العربية – إن كالديرون استلهم القونت لوقانور ؟ في البداية لابد من قبول أن كالديرون استطاع بسهولة كبيرة أن يقرأ هذا المصنف – نشر سنة 1575 ، قبل ربع قرن من مولد كاتبنا الدرامي الكبير – أكثر من معرفته قبل سبعة قرون . في الوسع أيضًا الاستنتاج أن

كالديرون – حين استهان بعناصر الرواية لدى دون خوان مانويل – وكانت متكلفة غير ضرورية – قد أعاد بناء الخطوط الأساسية في المشهد بحدسه الشاعري الملهم ، بيد أن هذا الاحتمال لا يبلغ إلى إقناعي . ثمة تشابهات تقلق كثيرا بين الحكاية الموجودة في المغرب ، وبين ذلك المشهد العاشر في مسرحية «الحياة حلم»(*).

دون أن ندع التفكير في أن كالديرون قد استطاع أن يقرأ الحكاية في القونت لوقانور ، فإننا نشير إلى أن كاتبنا الدرامي الكبير قد استطاع على الترجيح أن يعرف صياغة أخرى أقرب إلى الحكاية التي أخذها ابن سعيد منها إلى حكاية دون خوان مانويل ، فإن التدقيق في أن البطل عند كالديرون كان عالما هو علامة واضحة على أن لدى مؤلف «الحياة حلم» وعيا تاريخيا دقيقا بالشخصية .

وبالتفكير في وضع كالديرون الكنسي ، فمن يدري أنه لم تصل إليه هذه الحكاية عبر المواعظ الكنسية أو الأدب الديني وفيها حكاية مؤثرة مثل هذه – وربما انتشرت بواسطة الموريسكيين – قد استطاعت بسهولة أن يجري ذكرها .

كل هذا – إذن – يجعلنا نظن أن حكاية القنازعي قد استطاعت أن تصلح مصدرا عاما لكل من دون خوان مانويل وكالديرون من خلال شعاب ما زالت حتى الآن في طي الفروض .

(*) ترجم صلاح فضل هذه المسرحية .